

العمران والعمارة بمدينة ألتافا في الفترة القديمة

The urbanism and architecture in the city of Altava during antiquity

ط.د. / بوترة عبيد

جامعة أبو بكر بلقايد - تلمسان

البريد الإلكتروني: abir.boutera@univ-tlemcen.dz

الملخص:

منذ أولى بوادر الاستقرار البشري، ارتبط الإنسان ارتباطا وثيقا بالأرض وجغرافيتها، وتجلّى هذا الارتباط من خلال اختياره لتمرّكز مدنه، وطرق بنائها وتنظيمها العمراني. ولقد عرف المغرب القديم نهضة في عمران المدن خاصة في الفترة الرومانية أين خضعت هذه الأخيرة إلى مبادئ خاصة وتنظيمات محكمة شكلت لنا نسيجا عمرانيا مميزا.

تعدّ مدينة ألتافا من أهم مدن موريطانيا القيصرية التي تزخر بتاريخ غني وفريد في آن واحد، حيث أنّ هذه المدينة لم تكن على غرار مثيلاتها من المدن الرومانية بل كانت لها بصمتها الخاصة في التاريخ والعمران، الأمر الذي جعلنا نختار هذا الموضوع بغرض تسليط الضوء على هذه المدينة، عمرانها وعمارتها، وحتى يتسنى لنا الإجابة على الإشكالية التالية: ما هو التنظيم الإداري والتخطيط العمراني الذي عرفته مدينة ألتافا؟ وما هي أهم المعالم التي أنشأت بها عبر مختلف الفترات القديمة منذ التأسيس والنشأة إلى غاية الاندثار؟

الكلمات المفتاحية: مدينة ألتافا؛ العمارة؛ العمران؛ المغرب القديم؛ موريطانيا القيصرية.

Abstract:

Since the first signs of human settlements, man has been closely linked to the land and its geography. This connection was manifested through his choice to locate his cities, the methods of building them, and their urban organization. And the ancient Maghreb has known a revolution in the urbanization of cities, especially in the Roman period, where the latter were subjected to special principles and tight regulations that formed a distinctive urban fabric for us.

The city of Altava is one of the most important cities in Caesarean Mauritania, and it is known for its rich and unique history, as this city was not similar to its Roman counterparts, but rather had its own mark in history and urbanism, which made us choose this topic in order to shed light on this city, its urbanization, and architecture, so that we can answer the following questions: What is the administrative organization and urban planning that the city of Altava knew? And what are the most important monuments that were established in it throughout the various ancient periods, from its founding and establishment until its demise?

Keywords: The city of Altava; Architecture; Urbanism; Ancient Maghreb; Caesarean Mauritania.

مقدمة:

عرفت مدينة ألتافا استمرارية على مر العديد من القرون، إذ أنّ الشواهد الأثرية ترجع تأريخ المدينة إلى القرن الثاني ميلادي، إلاّ أنّه يرجح إنشاء المدينة كمركز عسكري على خط الليمس إلى بداية القرن الثالث ميلادي في فترة الحكم السيفيري، وفي القرن نفسه تم ذكر كلمة ordo في نقيشة للمدينة ممّا أدى إلى وضع فرضيات تنص على أن المدينة تخلت عن صبغتها العسكرية واكتسبت صفة بلدية رومانية municipium، نجد في القرون الموالية ان المدينة اكتسبت استقلالية كبيرة عن سلطة روما مشكلة بذلك ما عرف بمملكة ألتافا سنة 508م، كل هذه التغيرات التي طرأت على مدينة ألتافا جعلتنا نطرح العديد من التساؤلات أهمها: كيف كان تخطيط المدينة ونسيجها العمراني؟ وما هي أهم منشآتها المعمارية؟ وبغرض الإجابة عن هذه التساؤلات عمدنا إلى تحليل معطيات النقائش اللاتينية المكتشفة بالمدينة والتي تمثل أهم مصادر هذه الدراسة، إضافة إلى أرشيف الحفريات التي تمت بالموقع وذلك في محاولة منا للإلمام بجميع جوانب الدراسة.

1- نبذة عن مدينة ألتافا:

تقع مدينة ألتافا على بعد 30 كلم شرق مدينة تلمسان (Pomaria)، ويحاذيها واد يسر¹ (Isaris)، عرفت المدينة بـ"حجار الروم" أي الحجارة الرومانية لأنه كان به العديد من الحجارة المكتوبة باللغة اللاتينية²، تتربع التافا (أولاد ميمون) على مساحة حوالي 16 هكتار، وهي على الطريق الحديث الرابط بين مدينة سيدي بلعباس وتلمسان، وهو طريق يطابق الطريق الروماني القديم الذي كان يصل بين المراكز العسكرية الواقعة على الخط الدفاعي الثاني³.

2- عمران المدينة:

عرفت مدينة ألتافا نسيجا عمرانيا كغيرها من المدن بالمغرب القديم وتطور حسب الفترات التاريخية وارتبط بالحكام والمعتقدات والنشاط الثقافي والاقتصادي بالمدينة. المستكشفين الأوائل للموقع استطاعوا تمييز مدينتين، الأولى عسكرية مستطيلة الشكل ذات الأبعاد 370م×317م حسب MacCarthy، و380م×270م حسب Tugny؛ المدينة الثانية غير منتظمة الشكل تطوّرت بين السور الشمالي والحدود الشمالية للهضبة، وأبعادها حسب الباحث Jean-Marcillet Jaubert 430م×330م⁴، أي ما يعادل 12 هكتار⁵ (المخطط 01).

¹ - AMRAOUI, T., 2017, p. 08.

² - YAHIAOUI, N., 2003, p. 61.

³ - شنييتي، محمد البشير، 1999م، ص. 235.

⁴ - MARCILLET-JAUBERT, J., 1968, p. 09.

⁵ - ستي صندوق، 2022م، ص. 70.



المخطط 01: يمثل موقع التافا من مدينة أولاد ميمون. عن:
MARCILLET-JAUBERT, J., 1968, p. 11.



الصورة 01: الكاردو ماكسيموس مارس
1953م. عن: أرشيف مكتبة حصن 23.

تظهر الصور الجوية بعض الآثار
والسور المحيط ببعض أنقاض مدينة
ألتافا ممّا يمكن رسم تخطيط تقريبي
للشكل الذي كان عليه السور⁶،
فتنتشر آثار مباني خارج السور في
الجهة الشمالية، كما توجد مقابر
المدينة خارج الأسوار، كما تظهر بقايا
سد كان قائما على واد يسر بجنوبي
المدينة لتموينها بالمياه⁷.

قام كورتو بالكشف عن الكاردو
(الصورة 01) الذي يُعتقد أنه الحد

الأقصى لمحور يبلغ حوالي 160م من الجدار شرقا، و17م
من السور الغربي للمدينة القديمة. وهذا المحور يميل قليلاً
نحو الشمال الغربي ويبلغ طوله 130م⁸، مما يشير إلى تنظيم
مكاني حضري، ووفقاً لـ J. Lethielleux، كانت الساحة
العمومية تحت منشآت السكك الحديدية ومباني المحطة وهذا
دليل على الحياة المدنية في تخطيط المدينة⁹.

وتشهد النقوش العديدة المكتشفة في هذا الموقع على وجود
عدد كبير من السكان. حيث تصف هذه النقوش الحياة المدنية
التي تكشف عن الهياكل المعمارية الإدارية. علاوة على ذلك،
فإن التكريم المقدم للأباطرة يفترض وجود مكان عام، وهو دليل
قاطع على التخطيط العمراني الحضري، ممّا يجعل ألتافا مدينة
ذات مخطط عمراني غني لدرجة أنها كانت محمية في البداية
بالأسوار، في 349م-350م، قبل أن تصبح قلعة في 508م¹⁰.

⁶ - شنييتي، محمد البشير، 1999م، ص. 236.

⁷ - نفسه.

⁸ - YAHIAOUI, N., 2003, p. 62.

⁹ - Ibid.

¹⁰ - Ibid, p. 89.

3- عمارة المدينة:

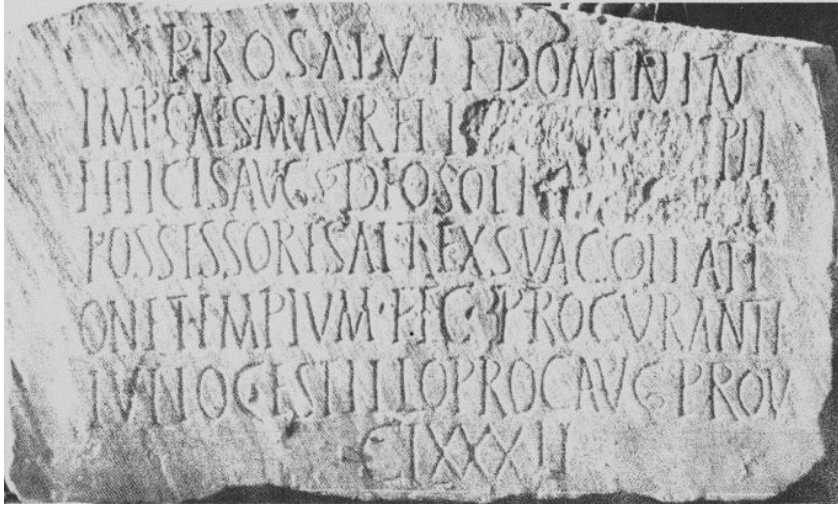
لا يمكننا اليوم دراسة عمارة مدينة ألتافا الا من خلال المخلفات وهذا يرجع إلى الاندثار التام للموقع وعليه سنتطرق إليها من خلال نصوص النقائش اللاتينية وكذا أرشيف حفريات.

3-1- العمارة الدينية:

أ- معبد الإمبراطور Elagabal (الصورة 02):

كرست هذه النقيشة للإمبراطور Elagabal الذي اقترنت عبادته بإله الشمس، ويذكر فيها انشاء معبد للإمبراطور سنة 221م.

*Pro salute domini n(ostri)/ Imp(eratoris) Caes(aris) M(arci) / Aureli [[Antonini]] Pii / Felicis Augusti deo Soli [[Elagabali]] / possessores Altavenses ex sua collati/one **templum** fec(erunt) procurante / Iulio Cestillo proc(uratore) Aug(usti) prov(incia) / CLXXXII.*¹¹



الصورة 02: تمثل النقيشة للإمبراطور Elagabal. عن:

https://db.edcs.eu/epigr/epi_ergebnis.php

ب- معبد الإلهة المقدسة

(الصورة 03):

اكتشفت النقيشة عند انشاء محطة القطار، وهي تذكر انشاء معبد للإلهة المقدسة ونظرا لكون النقيشة مهشمة من جهة اليسار فلم نستطع معرفة اسم الإلهة المعبودة، لكن يرجح انها الإلهة Diana أو الإلهة Nemesis وذلك لوجود نقائش بالمدينة تذكر عبادة الإلهتين.¹²

*de]ae(?) Sanctae / [**templum** corruptum(?) 3 lo]ngo tempore / [restituit(?) 3] / [3 proc(urator) Aug(usti)] n(ostri) instante / [3 Alta]venses perfec(er)unt / [a(nno) p(rovinciae?)]¹³*



الصورة 03: تمثل نقيشة الإلهة المقدسة. عن:

https://db.edcs.eu/epigr/epi_ergebnis.php

¹¹ LBIRNA 00478 = AE 1985, 00976 = BAA 1977/79-218.

¹² MARCILLET-JAUBERT, J., 1968, p. 225.

¹³ CIL 08, 21722 = IdAltava 00226.

ج- المذابح:

تم العثور بمدينة التافا على العديد من المذابح المخصصة للآلهة مختلفة والتي قد تكون مؤشرا لوجود معابد لهذه الآلهة ولقد تمثلت في:

- مذبحان للآلهة المورية الأول يؤرخ ما بين 227م و237م¹⁴.

Dis Mauris / Salutaribus / Aurelius E/xoratus dec(urio) / alae Part(h)orum / praepositus / c(o)hortis / Sardorum Se/verianae¹⁵.

- الثاني اكتشف على بعد 100م غرب ضيعة كورتو وعلى بعد 300م شمال السور¹⁶.

Di{i}s Prosperis / Mauris Saluta/ribus C(aius) Fan/nius Iunianus / a militiis praef(ectus) / cohortis Sardo/rum v(otum) s(olvit) l(ibens) a(nimo)¹⁷

- مذبح الإلهة ديسيبيلينا: تم اكتشافه في وسط الآثار، وهو يعود على الأرجح الى الفترة السيفيرية¹⁸.

Dis/cipli/nae / mili/tari¹⁹.

- مذبح الالهة ديانا والذي اكتشف في واد خلفون بالقرب من معلم صغير اندثر الآن²⁰.

Dianae deae / Nemorum Comiti / Victrici ferarum / annua vota dedi / Fannius Iuni/anus praefectus / cohortis II / Sardorum²¹

- مذبح للآلهة مان: اكتشف شرق هضبة حجار الروم على يمين واد شعبة الحجاج، يؤرخ بسنة 334م²².

D(is) M(anibus) s(acrum) / M(arcus) Caecili/us Donat/us vixit an(nos) LV m(enses) VII Aur/elia Boroc / marito li/bens ani/mo posuit / a(nno) p(rovinciae) CCLXXXV²³.

د- كنيسة (بازيليكا):

تم العثور على هذه النقيشة بالمقبرة الشمالية الشرقية على بعد 300م من الآثار²⁴، ونجد ذكر عبارة

Basilica dominica وهي من أولى الأمثلة التي استعملت فيها هذه العبارة للدلالة على العبادة

المسيحية²⁵، تؤرخ هذه النقيشة ببداية القرن الرابع الميلادي سنة 309م.

¹⁴ - MARCILLET-JAUBERT, J., 1968, p. 25-26.

¹⁵ - CIL 08, 21720 = D 02607 (p 179) = IdAltava 00010 = AE 1891, 00005 = JDAI-2020-268,1.

¹⁶ - MARCILLET-JAUBERT, J., 1968, p. 150.

¹⁷ - IdAltava 00235 = AE 1956, 00159 = JDAI-2020-268,2.

¹⁸ - MARCILLET-JAUBERT, J., 1968, p. 151.

¹⁹ - CIL 08, 09832 (p 2059) = D 03809 = IdAltava 00237 = GeA 00551.

²⁰ - MARCILLET-JAUBERT, J., 1968, p. 149.

²¹ - CIL 08, 09831 = D 03257 = IdAltava 00234.

²² - MARCILLET-JAUBERT, J., 1968, p. 47.

²³ - CIL 08, 09851 = IdAltava 00044.

²⁴ - MARCILLET-JAUBERT, J., 1968, p. 32.

²⁵ - Ibid., p. 33.

]DOM / [// Me(n)sa Ian/uari mar/t<y=U>ris p[fi]/e zeses // [Confe]ssione sancti et basilica dominica / [et] memoria bb(eatorum) vv(irorum) L(uci) Honorati L() P() Ta[n]/[n]oni Victoris <di=Z>(aconi) et Tannoni Ru[ffini]/ani L() P() fecit L(ucius) Tannonius Rog[atus] / [3]S IIII ab Honorato a(nno) p(rovinciae) CCLXX²⁶.

3-2- العمارة الجنائزية:

أ- قبر وطولة جنائزية (معلم لشهيد) (الصورة 04):

في نفس النقيشة المذكورة أعلاه نجد ذكر أول شهيد للديانة المسيحية بالمدينة الذي أقيمت له طاولة جنائزية Mensa وقبر قديس Confessio²⁷.

ب- ضريح:

تم اكتشاف النقيشة هذه في ظروف غير معلومة ثم اندثرت بعدها، كما اختلف الباحثون حول مقاساتها، فيها نص يتكون من 5 أسطر مهشمة من الجهة اليسرى، من المستحيل تأريخ المعلم هذا بالرغم من أن شكل الكتابة يوحي بأنها تعود إلى القرن السادس²⁸.

] Tertullus m<au=O>sole/[um 3 in]stituit aere suo et / [ob peccatorum suorum et] patris et matris sor/[oris et uxoris 3 fili]orum et nepotis red/[emptionem et] demissionem fecit²⁹.



الصورة 04: تمثل نقيشة ضريح. عن: https://db.edcs.eu/epigr/epi_ergebnis.php

ورأت الباحثة فريدة عمروس ان الطابق العلوي لبعض الأضرحة كان بمثابة معبد صغير أين تجري وتقام شعائر جنائزية³⁰، مما قد يجعل منه معلم جنائزي وديني في نفس الوقت. كما نجد بمدينة ألتافا العديد من المعالم الجنائزية على غرار الأنصاب وهي الأكثر انتشارا، بعدها تأتي الصناديق الجنائزية ثم الأعمدة، ولا نجد سوى مذبح جنائزي واحد والذي تم ذكره في الأعلى، إضافة الى مقبرتين³¹.

²⁶. IdAltava 00019 = Carletti-2008, 00199.

²⁷. COURTOT, P., 1934, 1986, p. 05.

²⁸. MARCILLET-JAUBERT, J., 1968, pp. 193-194.

²⁹. CIL 08, 09888 = IdAltava 00322.

³⁰. عمروس، فريدة، 2011م، ص. 31.

³¹. COURTOT, P., 1934, pp. 351-359; Id., 1936, pp. 08-12.

3-3- العمارة العسكرية:

أ- جدار وباب وأبراج:

هي نقيشة تعود لمنتصف القرن الرابع، كرسيت للإمبراطورين Constance و Constance II وتذكر إنشاء أسوار، باب جديد وأبراج تحية للإمبراطورين، وتؤرخ النقيشة ب 349 م.

Pro sal[ute atq(ue)] incolumi/tate dd(ominorum) nn(ostorum) Impp(eratorum) Co(n)stanti et / Co(n)stans Augg(ustorum) **murum** et **porta(m)** nova(m) / et **turres** a solo Statulenus Felix / disp(uncto) una cum primores ded[i]/cavit (!) p(rovinciae) CCCX³².

ب- قلعة (الصورة 05):

من أهم النقائش المكتشفة بمدينة ألتافا التي تناولتها العديد من الدراسات هي نقيشة الملك مازونا والتي تؤرخ بسنة 508م، وذكر فيها إنشاء قلعة Castrum التي شيدت من طرف مجموعة من الحكام لثلاث مدن هي مدينة Altava، Castra Severiana ومدينة Safar، تحت إمرة الملك مازونا ملك المور والروم حسب ما تم ذكره في النقيشة.

Pro sal(ute) et incol(umitate) reg(is) Masunae gent(ium) / Maur(orum) et Romanor(um) castrum (a)edific(atum) a Mas/givini pr(a)ef(ecto) de Safar Iider proc(uratore) Cast/ra Severian(a) quem Masuna Altava posuit / et Maxim(us) proc(urator) Alt(avae) perfec(it) p(rovinciae) CCCCLXVIII³³.



الصورة 05: تمثل نقيشة الملك مازونا. عن: بوترة عبيد.

³². IdAltava 00067 = LBIRNA 00705 = AE 1935, 00086.

³³. CIL 08, 09835 (p 975, 2059) = IdAltava 00194 = ILCV 00042 = ILCV +00800 = D 00859 (p 172) = BCTH- 1982-153 = AE 1998, 01595.

3-4- العمارة المدنية:

لم نجد في النقائش اللاتينية المكتشفة أي ذكر للعمارة المدنية وعليها اعتمدنا في هذا الشق على ما تم الكشف عنه خلال حفريات القرن الماضي، والذي تمثل في المعالم التالية: أثناء - بعض المنازل المحيطة بالكاردو ومنزل مبلط بفسيفساء سوداء وبيضاء، حفرة جويلية 1953م (الصورة 06).

- مخازن أو مطامير اكتشفت بها العديد من الجرار الكبيرة dolia في حفرة ديسمبر 1953م (الصورة 07).

حسب الباحث J. Lethielleux، توجد مباني من بينها المحلات التجارية والدكاكين بما في ذلك ثلاث معاصر زيت (الصورة 08). الأولى، محفوظة جيداً، كانت مجاورة لأحدى المنازل، والثانية تم العثور عليها في الكاردو مكسيموس، وأخيراً الثالثة شمال الكاردو مكسيموس على شارع جانبي بعرض 5.20 متراً³⁴.



الصورة 06: تمثل منزل الفسيفساء أثناء حفريات ألتافا جويلية 1953م. عن: أرشيف مكتبة حصن 23.



الصورة 08: تمثل معصرة زيت أثناء حفريات ألتافا 12 ماي 1952م. عن: أرشيف مكتبة حصن 23.



الصورة 07: تمثل مخازن أو دكاكين أثناء حفريات ألتافا ديسمبر 1953م. عن: أرشيف مكتبة حصن 23.

³⁴. YAHIAOUI, N., 2003, p. 62.

إضافة إلى هذه البقايا، يكشف لنا عن قواعد وجذوع أعمدة، وتبليط من الفسيفساء، وقطع تماثيل، بعضها محفوظ في متحف وهران، والبعض الآخر اختفى³⁵.

الخاتمة:

كخلاصة لما تطرقنا له سابقا، نجد أن مدينة التافا تبقى تطرح العديد من الإشكاليات وذلك يرجع إلى الحفريات الجزئية الشحيحة التي أقيمت بها واندثار الموقع حاليا والتي تحرم الباحث من الوصول إلى تصور شامل للمدينة، كما أن التعاقب الزمني عليها جعل دراستها أكثر تعقيدا، لكن وبالرغم من ذلك استطعنا إلى حد ما معرفة النسيج العمراني لهذه المدينة من خلال تحليل المعطيات التي تناولناها في بحثنا، والذي بدوره عرف العديد من أنماط العمارة من الدينية المتمثلة في المعابد، المذابح والبازيليك المسيحية، إلى الجنائزية التي كانت السائدة بالمدينة إذ تنوعت معالمها وأبرزها الضريح، إضافة إلى العمارة العسكرية التي تمثلت في التحصينات التي عرفتها المدينة خلال القرنين الرابع والسادس ميلاديين، كما وجدنا أن المدينة بالرغم من نشأتها كمعسكر على خط الليمس السيفيري إلا أنها عرفت تطورا عمرانيا كبيرا وهذا ما كشفت عنه الحفريات التي أجراها الباحثان الفرنسيان Courtot و Pouthier، حيث استطعنا معرفة إلى حد ما التخطيط العام للمدينة من خلال تحديد الشارع الرئيسي الكاردو ماكسيموس وكذا الساحة العامة إضافة إلى المنازل المطلة على الكاردو والدكاكين التي شهدت على نشاط اقتصادي كبير يثبت أهمية ومكانة المدينة.

قائمة المبيليوغرافيا:

1. شنيقي، محمد البشير، 1999م، الجزائر في ظل الاحتلال الروماني، بحث في منظومة التحكم العسكري (الليمس الموريطاني) ومقاومة المور، الجزء الأول، الجزائر.
2. عمرو، فريدة، 2011م، "عمارة الأضرحة الرومانية بالجزائر"، مجلة الدراسات الاثرية، 09، 01، ص ص. 28-34.
3. AMRAOUI, T., 2017, L'artisanat dans les cités antiques de l'Algérie, I^{er} siècle avant notre ère- VII^e après notre ère, Oxford.
4. COURTOT, P., 1934, « Une nécropole romaine d'Altava », in B.S.G.A.O, pp. 351-359.
5. COURTOT, P., 1936, « Une nécropole romaine d'Altava », in B.S.G.A.O, pp 08-12.
6. COURTOT, P., 1986, « Altava », Encyclopédie berbère, 4. = [DOI : 10.4000/encyclopedieberbere.2453](https://doi.org/10.4000/encyclopedieberbere.2453)
7. MARCILLET-JAUBERT, J., 1968, Les inscriptions d'Altava, Aix-en-Provence.
8. YAHIAOUI, N., 2003, Les Confins occidentaux de la Maurétanie Césarienne, Thèses de doctorat, Sciences de l'Homme et Société, Ecole pratique des hautes études – EPHE, Paris.= <https://theses.hal.science/tel-00534329v1>
- https://db.edcs.eu/epigr/epi_ergebnis.php.